صلياً : اصطلاء واحتراقاً في النار من صَلِيَ يصْلَى : أي دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أي : طلب هو النار ، كما في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل]

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم في ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون في الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رَهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقى باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾[الأحزاب]

وفي آية أخرى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البقرة]

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ .. ۝٧٢﴾ [مريم] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا ؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أي : أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ [القصص] أى : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أى : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، ستردُون النار وترونْها ؛ لأن الصراط الذى يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى قال قال ﷺ : « يوضع الصراط بين ظهراني جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان[1] ، ثم يستجيز الناس ، فنَاجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس[2] ومكدوس فيها »[3] .

فإذا ما رأى المؤمن النار التى نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أى : أتى الماء وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [هود] أى : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربى الذى نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر[4] :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه ... وَضَعْنَا عِصِىَّ الحاضِر المتَخَيِّم[5]

---

(١) حسك السعدان : قال أبو حنيفة : هى عشبة تضرب إلى الصفرة ، ولها شوك يسمى الحسك أيضاً مدحرج ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا من فى رجليه خف أو نعل . [ لسان العرب - مادة : حسك ] .

(٢) مكدوس فى النار : مدفوع فيها . وتكدَّس الإنسان : إذا دُفع من ورائه فسقط . [ اللسان - مادة : كدس ] والمنكوس : المطأطىء رأسه من الذل والهوان .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى سننه ( ٤٢٨٠ ) ، والحاكم فى مستدركه ( ٤/ ٥٨٥ ) والديلمى فى الفردوس [ حديث رقم ٨٨٣٦ ] .

(٤) هو : زهير بن أبى سُلْمى من مُضَر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء ، وُلد فى بلاد « مُزَيْنة » بنواحى المدينة ، توفى عام ١٣ ق . هـ [ الأعلام للزركلى ٥٢/٣ ] .

(٥) هذا بيت من معلقة زهير بن أبى سلمى ، قال الزوزنى فى شرحه : للمعلقات السبع - ص ١٠٥ - طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م : « يقول : فلما وردت هذه الظعائن الماء وقد اشتد صفاء ما جُمع منه فى الآبار والحياض عزمن على الإقامة كالحاضر المبتنى الخيمة » ، والجمام هو ما اجتمع من الماء فى البئر والحوض أو غيرهما .

أى : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعة أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَربوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أى : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

وأصحاب هذا الرأى الذين يقولون ﴿ وَارِدُهَا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] أى : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] ولَقال : ثم يُنجِّى الله الذين اتقوا ويدخل الظالمين .. لكن ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأى الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شىء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .

كما رأينا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنهم الله منه ، فألقوه فى النار ، وهىَ على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزل مثلاً على النار مطراً يُطفئها ليوفر لهم كل أسباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء فى قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فرْقٍ كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

ثم يُنجِّى الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] الحتْم : هو الشىء الذى يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أىّ شىء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورنى غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شىء ، إنما الذى يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شىء عن مراده .

فإنْ قلتَ : فمَن الذى حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أى : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفى فى هذه السورة ، حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة ( الكافرون ) سورة الحكم[2] : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .. (١) ﴾ [الإخلاص] فلا ثانيَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه

---

(١) قال الواحدى فى « أسباب النزول » ( ص ٢٦١ ) : « نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم ، اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره » .

(٢) هى : سورة الإخلاص . قال السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » ( ١٥٩/١ ) : « تسمَّى الأساس ، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين » .

نهائى وحَتْماً مقضياً لا رجعةَ فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

جثياً : من جَثَا يجثُو أى : قعد على رُكَبه دلالة على المهانة والتنكيل . ثم ينقلنا الحَق سبحانه إلى لقطة أخرى ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله فى صالحهم يُسوِّى بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوى والضعيف .

فطبيعى أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله فى وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق – تبارك وتعالى – : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ وما أدراك مَنْ هو عمر ؟ قال[1] : أىّ جمع هذا ؟ وأىُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم ( ٤/٢٦٦ ) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

وفى هذه الآونة ، يأمر رسول الله ﷺ المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم فى بدر . قال عمر : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

وفى هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش ؟ أيرضى رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق ؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]

فالمؤمن والكافر ، والغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر ليُمحِّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين فى قلوب المؤمنين ؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته ﷺ إلى الدنيا كلها فى جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون الإسلام ، ليس لمغنم دنيوى ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل فى الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ؟ الغنى مفتون بالفقير حيث هو فى سَعَة من العيش والفقير فى ضيق ، الغنى يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدى الغنى الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدى حقها ؟

والفقير مفتون بالغنى حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر

على هذه الشــدة ؟ أم سيعـترض على مـا قدّره الله له ، ويحـقد على الغنىّ ؟

ولو علم الفـقيـر أن الفقـر درس تدريبى أُجْـرِى لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله فى كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَمَا اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغنى .

وكذلك يُفتَن الصـحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فـالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كمـا جاء فى الحـديث القدسى : « يا ابْن آدم ، مرضْتُ فَـلم تعُدْنى . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العـالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدّته لوجدتنى عنده »(١)

لذلك تـرى أهل الأمـــراض من الـمــؤمنـين يتــألـم زُوّارهم من أمراضــهم ، فى حين أنهم فى أُنْس بـالله يشغلهم عن أمـراضـهم وعن آلامهم ، ومَن الذى يزهد فى مـعية الله ؟ إذن : لو حقـد المريض على السليم فهو مـفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كـان الصحيح فى معية النعمة فهو فى معية المنعم سبحانه وتعالى .

وسيدنا نوح - عليه السلام - بعـد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا(٢) بَادِيَ الرَّأْيِ .. (٢٧) ﴾ [هود] فكان أتباع نوح فى نظرهم حـثالة القوم ، ثم حـاولوا أنْ يُغـروه بـهم ليطردهم ، فـهم ضــعـاف لا جـاهَ لهم ولا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ( ٤/١٩٩٠ ) ، والبخارى فى الأدب المفرد ( ٥١٧ ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا [ القاموس القويم ١/٢٦٣ ] . قال ابن كثير فى تفسيره ( ٢/٤٤٢ ) : « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك » .

سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ (٢٩)﴾ [هود]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود]

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدرى أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام]

وهكذا جاءت اللقطة التى معنا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾ [مريم]

قوله : ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ (٧٣)﴾ [مريم] الآيات : جمع آية وهى الشىء العجيب الذى يتحدث به ، وتُطلق - كما قلنا - على الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التى تحمل الأحكام ، وهذه هى المرادة هنا ؛ لأن آيات القرآن تنطوى فيها كل الآيات .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ .. (٧٣) ﴾ [مريم] أى : لقد ارتضينا حكمكم فى هذه المسألة : نحن الكفار فى سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان فى ضيق ، فأىّ الفريقين خير مقاماً ؟ والله بمقاييسكم أنتم . فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام ـ بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما « مُقام » بضم الميم ، فمنْ أقام . والمراد هنا ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا (٧٣)﴾ [مريم] أى : مكاناً يقوم فيه على الآخر أى : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره.

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم] الإنسان عادةً له بيت يأويه ، وله مجلس يَأوى إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه « حجرة الجلوس » أو « المندرة » ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول فى العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام انفضَّ المجلس كله ؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلسُ[1]

وهناك النادى ، وهو المكان الذى يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما نرى الآن : نادى الرياضيين ونادى القضاة .. إلخ إذن : فالنادى دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

(١) أورده أبو على القالى البغدادى فى كتابه « الأمالى » ( ١/١٢٧ ) من شعر مُهَلْهِل ، أنه قال : نُبِّئْتُ أن النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وهو من بحر الكامل .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [العلق]
ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام « دار الندوة » ، وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله ﷺ .

ومن النادى ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما فى قَوْل الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ .. وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى هذا دليل على شيوع الفاحشة والقحَة بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سِراً ، بل فى جَمْعٍ من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادى أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أى : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت :رَفيع العماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من النَّاد[1]

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادى ، فهو مَقْصد الناس فى قضاء حاجياتهم .

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ [مريم] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا فى

---

(١) هذا حديث أم زرع أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٥١٨٩ ) ومسلم ( ٢٤٤٨ ) كتاب فضائل الصحابة أن عائشة قالت : « جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً » حديث طويل . قال ابن حجر فى الفتح ( ٩/ ٢٦٥ ) : « وصفته بالشرف فى قومه . فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره . أو : أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهل لقاؤه ، ويكون أقرب إلى الوارد وطالب القِرَى » .

الدنيـا وهو الرزاق ، فلابد أنْ يَحْـبُوَنَا فى الآخـرة ، لكن لم تتـعرض الآيات للقـول المقـابل من المؤمنين ، إنمـا جاء الرد عليـهم من طريق آخر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا(١) وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

كم : خبرية تدل على الكثرة التى لا تُحـصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معى معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التى أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجـماعة المـتعايشـون زماناً ، بحيث تـتداخل بينهم الأجيال ، فـترى الجدَّ والأب والابن والحفـيد معاً ، وقـد قدَّروا القرن بمائة عام . كـما يُطلَق القرن على الجـماعة الذين يجتمـعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هــو فــراش البـيـت ، وهـذا أمــر يتناسب وإمـكانات صاحبه .

والرِّئْى : على وزن فِعْل ، ويراد به المـفعول أى : المرئى ، كـما جـاء فى قـوله تعـالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصـافـات] فذِبْح بمعنى : مذبوح .

---

(١) الأثاث : المال الكثير أو متاع البيت لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحدته أثاثة [ القاموس القويم ١/٦ ] .

وورد فى قراءة أخرى[1] : ( أَحْسَنُ أَثَاثًا وزِيًا ) وهى غير بعيدة عن المعنى الأول ؛ لأن الزىّ أيضاً من المرئى ، إلا أنه يتكوّن من الزى والذى يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، فى حين كان المؤمنون شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالى من الثياب .

وقد جاء الاختلاف فى بعض ألفاظ القرآن من قراءة لأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على مَلَكَة العربى وفصاحته التى تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف فى العصر الأموى . فمثلاً النَّبْرة فى كلمة دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تُقرأ : باء أو ياء .

والعربى لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة ( رئْيًا ) تقرأ ( زيا ) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] قرأها بعضهم ( فتثبتوا ) وكلمة ﴿ صِبْغَةَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة] قرأها بعضهم ( صنعة ) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف فى مثل هذه الحروف لا يؤدى إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربى قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربى فى هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهى بالنسبة له

---

(١) هى قراءة ابن عباس وأبىّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى . قال القرطبى فى تفسيره ( ٤٣١٥/٦ ) : « هو الهيئة والحسن ، ويجوز أن يكون من زويت أى : جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء » .

مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم] لأنهم قالوا : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هي عطاء من الله وفتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عزَّة وجاه ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذلَّة وهوَان لَم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملي لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

كَمَا ابرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ     فلَمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[2]

فأطمعهم في البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم في النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذي بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فيه ، واستشرف الريَّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمُه أعظمَ ، ولو لم يأته بالماء لكان أهونَ عليه .

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعي ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً ، في نفسه شمم وترفع ، يقال له « كثير عزة » وهي عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً في حبه لها . توفي عام ( ١٠٥هـ ) . الأعلام للزركلي ( ٥/٢١٩ ) .

(٢) ديوان كثير ( ص ١٠٧ ) وأورده شهاب الدين الحلبي ( ت ٧٢٥ هـ ) في « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ( ص ١٢١ ) . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بـينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنـيا ، فقد قـارنتم الوسائل وطرحـتُم الغايات ، ومن الغبـاء أنْ نهـتم بالوسـائل وننسى الغـايات ، فلكي تكون المـقـارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد في زراعـته يعتني بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضـه كل يوم ، وآخـر ينعَم بالثـيـاب النظيـفـة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحـبه الذي أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا مـا جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ في الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

أَلاَ مَنْ يُرِينِي غَايَتِي قَبْلَ مذْهَبِـي ... ومِنْ أَيْنَ والغَايَاتُ بَعْدَ المذَاهِبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة في الدنيا عن الغاية في الآخرة ، فتباهوا وعيَّروا المؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

وفي قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (٢٤)﴾ [العنكبوت]

وهكذا اتفقـوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيـه وخيَّب سَعْـيهم ، ثم كانت الغاية في الآخرة :﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت]

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾ [مريم] وكما قال فى آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر فى التاريخ ، والتأمّل فى عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغنى عنهم من المقام والنديّ الذى يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التى تنتظرهم فى الآخرة ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظرى يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر فى عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ (٧٤) ﴾ [مريم] فإنما يحثُّهم على أخْذ العبْرة والعظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شيء حاضر على صدْق غَيْب آت ، فالحضارات التى سبقتهم والتى لم يوجد مثلها فى البلاد ، وكان من

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : أن ثموداً قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [ القاموس القويم ١/ ١٣٥ ] .

صفاتها كذا وكذا ، مـاذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذِّبين ؟

هذا من ناحيـة الواقع ، أما الغـيب فيعـرض له القرآن في مشـهد آخـر ، حيث يقـول تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

هذا المشـهد في الدنيا ، فمـا بالهم في الآخرة ؟ : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾ [المطففين]

ثم يخاطـب الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ المـؤمنين فيـقول : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يعني : بعد مـا رأيتموه من عـذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عـمَّا فعلوه بكم من استهزاء في الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم في الدنيا موقوت الأجل ، أما ضحككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له . فأيُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فـإياكم أنْ تغـرّكم ظواهر الأشـياء ، أو تخـدعكم بَرقـات النعـيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ[1] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾ [الكهف]

---

(١) اختلفت أقوال العلماء في ماهية الباقيات الصالحات على أقوال ، ذكرها ابن كثير في تفسيره ( ٣/٨٥ - ٨٧ ) :
- قال ابن عباس : هي الصلوات الخمس . وفي قول له : هي الكلام الطيب .
- قال مجاهد : هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها .